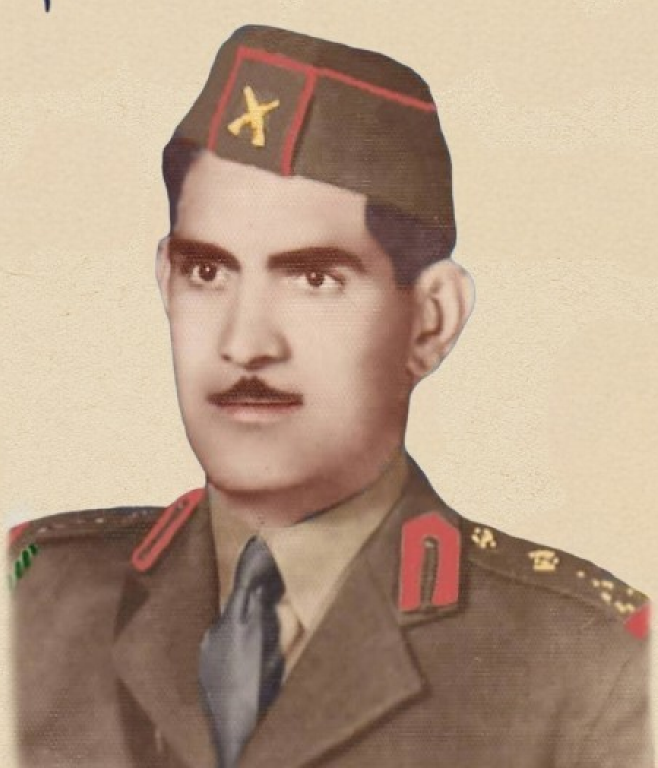
آراء في الزمن المضطرب

كتابات وتحليلات عن ثورة تموز وقائدها عبد الكريم قاسم



رضا سعد

مقدمة

يهدف هذا الكتاب إلى تسليط الضوء على تجربة الزعيم عبد الكريم قاسم، أول رئيس وزراء في تاريخ الجمهورية العراقية، من خلال معالجة عدد من الإشكاليات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي ارتبطت بشخصه، وبالمرحلة التي قاد فيها الدولة العراقية .

ينطلق هذا العمل من مجموعة من الأسئلة التحليلية التي طرحت على شكل مناقشات مفتوحة، ثم جرى معالجتها والإجابة عنها بمنهج وصفي-تحليلي، يعتمد على ما توفر من مصادر تاريخية، وشهادات معاصرين، إلى جانب القراءة الشخصية للواقع السياسي والاجتماعي لتلك المرحلة.

يتناول الكتاب أبرز الموضوعات التي شغلت الباحثين والجمهور على حد سواء، مثل:

- أسباب الثورة على النظام الملكي.

- موقف الشعب العراقي من الثورة.

- جدلية الزعامة الفردية عند عبد الكريم قاسم.

- العلاقة بين قاسم والضباط الأحرار.

- البُعد الاجتماعي والوطني لشعبيته.

- وتفسيرات سقوط النظام الجمهوري الأول.

ولا يهدف هذا الكتاب إلى تقديم حكم نهائي على شخصية الزعيم، بل يسعى إلى فهم الظاهرة القاسمية من خلال ربطها ببيئتها التاريخية والاجتماعية، بعيدًا عن الغلوّ في التمجيد أو الانخراط في الهجوم الإيديولوجي.

اسئلة وتحليلات في الثورة ومسبباتها

- **ما هي أهم الأسباب التي دفعت عبد الكريم قاسم إلى قيادة ثورة ١٤ تموز في العراق؟**

- شهد العراق في عهد النظام الملكي واقعا اجتماعياً صعباً، حيث تركزت السلطة والمال في يد طبقة الإقطاعيين والاغنياء، بينما كانت الغالبية العظمى من الشعب تعاني من الفقر والظلم الاجتماعي.

ان سياسات النظام الإقطاعي انعكست سلبا على حياة الفلاحين والعمال، فكانت معظم الاراضي الزراعية محتكرة بيد قلة، مما أدى إلى تدهور أوضاع الفقراء وزيادة الفجوة الطبقية. إضافة إلى ذلك، كان العراق يمر بفترات من التضخم وغلاء الأسعار، خاصة خلال الحرب

العالمية الثانية، حينما اتخذ النظام قرارات اقتصادية أثرت على القدرة الشرائية للمواطنين. محاولة عبد الإله ولي العهد آنذاك، إدخال العراق في الحرب إلى جانب الحلفاء، رغم عدم رغبة الشعب بذلك، زادت من الشعور بالغضب والاستياء العام، حيث رئي أن النظام لا يمثل إرادة الشعب بل يخدم مصالح القوى الاستعمارية .

أما على الصعيد السياسي، فقد شهدت الفترة تراخي النظام الملكي في قضاياه الوطنية، لا سيما في دعم القضية الفلسطينية. تخاذل النظام في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي ووقوع نكبة ١٩٤٨ ، التي شهدت تهجير وتشريد الآلاف من الفلسطينيين، أظهر عدم التزام النظام بمبادئ العروبة والكرامة الوطنية.

هذا الموقف أثار سخط الضباط الوطنيين في الجيش، الذين رأوا أن النظام الملكي أصبح تابعاً ومخدوعاً من قبل القوى الإمبريالية والصهيونية التي كانت تستغل القضية الفلسطينية لأهدافها الخاصة.

أضف إلى ذلك، كان ذلك النظام يربط العراق ارتباطاً وثيقاً المشروع الغربي وسياسة المحور الأطلسي، متخلياً عن سياسة الحياد الإيجابي التي حاولت الجمهورية الأولى تبنيها لاحقاً، والتي كانت تسعى للحفاظ على استقلال القرار العراقي وعدم الانحياز إلى أي معسكر خارجي.

هذه العوامل الاجتماعية والسياسية، مجتمعة، شكلت بيئة خصبة لتنامي الأفكار الثورية داخل صفوف الضباط في الجيش العراقي، الذين رأوا

في النظام الملكي عائقاً أمام تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية والاستقلال الوطني الحقيقي.

ونتيجة لذلك، بدأ تنظيم الضباط الأحرار، بقيادة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، في التخطيط والتهيئة لثورة شاملة تهدف إلى إسقاط النظام الملكي وإقامة نظام جمهوري يعبر عن إرادة الشعب ويحمي مصالحه.

* * *

❖ **كيف ساهمت الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي عانى منها العراقيون في بناء الدعم الشعبي لثورة ١٤ تموز، وهل كان هذا الدعم عاملاً حاسماً في نجاح الثورة ؟**

▪ لعب الدعم الشعبي دورًا محوريًا في نجاح ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، حيث خرج معظم العراقيين في صباح الثورة ليحتفلوا بسقوط النظام الملكي، ما يعكس مدى فقدان هذا النظام لشرعيته في أعين الشعب. لم يكن هناك أي دعم شعبي للنظام الملكي، بل على العكس، لم يكن هناك من بقي في المنازل، بل تعمّدت الجماهير الاحتفال باندلاع الثورة رغم عدم معرفتهم بالشخصيات التي قادتها. هذا الواقع يعكس مدى الاحتقان والغضب الشعبي المتراكم ضد النظام.

يعود السبب في ذلك بشكل كبير إلى تجاهل النظام الملكي للطبقات

الفقيرة والكادحة، إذ لم يوفّر لهم أي دعم اجتماعي حقيقي أو فرص تحسين وضعهم الاقتصادي. على الرغم من أن مؤسسات مثل «مجلس الإعمار» كانت على علم بالمعاناة الاجتماعية، إلا أن هذه الطبقة لم تحظَ باهتمام جدي، مما عزز شعورهم بالإقصاء والتهميش.

وكانت السياسات الطائفية للنظام الملكي أحد الأسباب المهمة في هذا الإقصاء، حيث كان المسؤولون يطلقون على الطبقة الفقيرة تسميات تحقيرية مثل « الشروگية » و « المعيدي » ، في محاولة للحد من مكانتهم الاجتماعية. وقد جسّد ذلك تصريح الباشا نوري السعيد، حين قال: « سأجعل من أبناء السنة ضباطاً ومهندسين ومن أبناء الشيعة عمالاً مهرة . [١] »

فهذا التصريح يؤكد حجم التميز الطائفي والاجتماعي الذي رسخه النظام، مما دفع الجماهير إلى دعم الثورة بكل قوة.

❋ ❋ ❋

❖ **ما رأيكم بالقول إن اندفاع الجماهير لم يكن حبا مطلقا بالقائمين على الثورة، بل كان تعبيرا عن كراهيتهم الشديدة للنظام السابق؟**

▪ هذا السؤال يتفرع إلى عدة محاور، وأول هذه المحاور يتعلق بتفسير ذلك الخروج الجماهيري العفوي إلى الشوارع بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ والذي لم يكن مجرد تعبير عن الابتهاج بسقوط النظام الملكي، بل كان في جوهره تنفيسا عن سنوات طويلة من القهر والاستبداد والتمييز الاجتماعي الذي مارسه ذلك النظام ضد شرائح واسعة من الشعب العراقي. لم يكن خروج الناس إلى الشوارع حبًا بالقادة الجدد – إذ لم يكونوا يعرفونهم بعد – بل جاء كرد فعل شعبي عميق ومكثف على سقوط من سموهم بـ « الطغاة » (٢) الذين حكموا العراق بقبضة من حديد وتحالفوا مع الأجانب على حساب مصالح الشعب، فكانت

فرحتهم في الحقيقة بسقوط أولئك .

فالشعب العراقي بطبيعته شعب حي ، لم يقبل في تاريخه بالذل، ولم يصمت على الجور، والدليل على ذلك أن حماسه وترحيبه لم يكن حكرا على ثورة ١٤ تموز وحدها، إنما تكرر سابقا مع معظم الحركات والثورات التي سبقتها، كأنما كان يبحث عن أي فرصة للتخلّص من قيود النظام الملكي الذي بدا في نظره نظاما ضيق الأفق، منعزلا عن تطلعات الشعب، فاقدا لثقة الجماهير، قليل الشعبية، ضعيف الحضور بين عامة الناس.

فكل هذا على النقيض تمامًا من الثورة وقادتها، وبالأخص الزعيم عبد

الكريم قاسم، الذي لا نبالغ إذا قلنا إنه كان أول وآخر زعيم عراقي يلتف حوله الناس من كل الطبقات والاتجاهات.

فمنذ اللحظات الأولى بعد الثورة، لمس العراقيون صدق هذا الرجل، ونزاهته، وتفانيه في خدمتهم، حتى أن شعبيته تجاوزت كل ما عرفه العراق من زعامات، وصار اسمه على كل لسان. أطلق عليه البسطاء العديد من الألقاب، مثل "« الزعيم الأوحد » و« أبو الفقراء » ورددوا الهتافات باسمه في كل مناسبة، أشهرها: «ماكو زعيم إلا كريم » [٣] ، الذي أصبح لازمة في وجدان الجماهير تعبر عن حبهم غير المشروط له.

أما بعد مقتله في يوم ١٥ رمضان ، الموافق ٩ شباط ١٩٦٣ ، فقد

دخل الحزن بيت كل فقير ومظلوم، ورفض كثيرون تصديق خبر وفاته، حتى بعد إذاعة البيان الرسمي، بل إن الكثيرين لم يقتنعوا إلا بعد عرض جثته على شاشة التلفزيون. ومع ذلك، ظلت فئة من الناس ترفض التصديق، فانتشرت بينهم روايات وأوهام تقول إنهم شاهدوا وجه الزعيم على سطح القمر (٤) ، كأنما أراد الوجدان الشعبي أن يُخلّده ويأبى موته.

أما الشق الثاني من السؤال، فهو يتعلّق بفكرة أن خروج الناس لم يكن بدافع الولاء أو الحب لقادة الثورة الجدد، بل لأنهم ببساطة لا يعرفونهم، ولم يكونوا قد رأوا منهم شيئًا بعد. ولهذا فإن اندفاعهم للاحتفال لم يكن احتفالًا بالبديل، بل احتفالًا بالخلاص من واقع

مرير، ومعاهدات جائرة، وأحلاف عسكرية لم تجلب للعراق سوى التبعية والتوتر [٥] ، ومع مرور الوقت، بدأ الشعب يلمس وجوهًا جديدة من الزعامة والقيادة، وكان على رأس هؤلاء الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي تمكن بفترة قصيرة من كسب حب الناس وتقديرهم بلا استثناء، وبرز كقائد وطني من طراز خاص، يعبّر عن صوت الشعب وآماله.

❋ ❋ ❋

❖ ما أثر النزعة الفردية لعبد الكريم قاسم في تشكيل الجمهورية الأولى؟ وهل ساهمت هذه النزعة في حماية الثورة أم في عزل النظام عن القوى الشعبية ؟

▪ لا أرى أن النزعة الفردية في قيادة عبد الكريم قاسم كانت انعكاسًا لطموح شخصي بالسلطة، أو شكلًا من أشكال الاستبداد كما يشاع أحيانًا.

أنا أراها ، في نظري، أسلوبًا اضطراريًا لحماية الجمهورية الناشئة من الانقسامات، وحفظ الدولة من الفوضى التي كانت تتربص بها منذ لحظة ولادتها.

عبد الكريم قاسم لم يكن طامعًا في الحكم او محباً بالسلطة ، بقدر ما كان مشغولًا بمستقبل العراق، حريصًا على أن تستقر البلاد وتسير في طريق

يخدم الشعب، لا النخبة.

لم يقصِ أيا من رفاقه في « اللجنة العليا للضباط الأحرار » ، بل أوفى لهم بعهده، ووزع المناصب على أعضائها بشكل عادل، دون أن يستأثر بها لنفسه، أو يمارس الإقصاء الذي عادة ما يصاحب الثورات (٦) .

لقد ظهر قاسم في نظر العراقيين على أنه نصير الفقراء وأبو الفقراء ، صوتهم الذي انتظروا طويلًا أن يسمعهم، وقد تقرب منهم بالفعل والسلوك وليس مجرد شعارت اعلامية . كان يتجول في الأسواق، ويضع حجر الأساس للمشاريع، ويتابع تنفيذها بنفسه.

ولتوضيح الصورة اكثر ، ذكر شاكر محمود العزاوي أحد مواقف «

الديكتاتور! » قاسم ، حيث قال : « ذات مرة كان الزعيم يمشي في زياراته الليلية الشتوية في المناطق الشعبية مع احد مرافقيه، وكان الزعيم يتدثر بمعطف عسكري وبدون رتب. وحين وصل كراج علاوي الحلة وقت الفجر قرر ان يتناول فطوره عند امرأة في الخمسين من عمرها ومعها ابنتاها تبيع القيمر والشاي. فجلس الزعيم قبالة المرأة وهي لا تعرف من هو، فسألها الزعيم، هل لك معيل يعيلكم انت وبناتك؟ فردت عليه زوجي معاق في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، ونحن نسكن في بيت من الطين في منطقة الوشاش وانا الوحيدة مع هاتين البنتين نعمل في هذه المهنة منذ خمس سنوات فرد عليها الزعيم وهل شكوت حالك للزعيم، وهنا ردت عليه بعصبية : « انعل ابو الزعيم ! » وقد

تغيرت ملامح وجه الزعيم، ليقول لها يمه انا صديق الزعيم وهاي ورقة مكتوبة له وان شاء الله الزعيم ماراح يقصر وياج . بعد يومين من اللقاء بهذه المرأة جاء الملازم اول كنعان خليل ليخبرها بأن هذه ورقة مكتوبة بخط الزعيم تقول كل من تقع هذه الورقة بيده توصيل صاحبها لمقر تواجدي.

وبعد ان اخبر المرافق الزعيم بذلك طلب احضارها فورا وبعد دخولها لغرفته حيته بأجمل التحايا. وطلب من المراسل جلب نفر كباب من مطعم الاخلاص وكان سعر النفر الواحد ستين فلسا وبعد وصول الطعام ، جلس الزعيم امامها وهو يشرب كوب الشاي المخلوط بالحليب . وبعد الانتهاء من الفطور، طلب حضور مدير الشعبة الرابعة في وزارة

الدفاع وكذلك مدير عام التقاعد، ووجههما بتخصيص راتب تقاعدي لزوجها مقداره خمسون دينارا شهريا. وطلب من مدير الشعبة الرابعة بأن يخصص لعائلتها دارا من دور الطوبجي. وبعد

انصراف هذين المسؤولين اخرج من جيبه كل ما يملك ١٧ دينارا، فشكرته المرأة وارادت تقبيل يده فابى ذلك وقال لها : هل عرفت صاحب الزعيم الذي كتب لك هذه الورقة ؟ فردت عليه لا والله بس هو طيب مثلك فرد عليها بابتسامة : « يمه انا صديق الزعيم » لتثور المرأة باكية : « انت الزعيم وانا شتمتك [٧] »

أيّ دكتاتور يتحدث إلى شعبه بهذا الصدق وبهذا التسامح ؟

إن كان هذا هو « الدكتاتور » كما يدعون، فأنا أول من يناصره.

إن عبد الكريم قاسم لم يمارس الديكتاتورية بمعناها القاموسي القاسي، بل مارس نوعا من المركزية الضرورية في مرحلة انتقالية حرجة، وكان هدفه الأسمى هو الحفاظ على وحدة الدولة، وحماية مكتسبات الثورة، ومنع التآمر الداخلي والخارجي على الجمهورية العراقية الفتية.

* * *

❖ هل أنقذت ثورة ١٤ تموز العراق من التبعية، أم أدخلته في فوضى سياسية واجتماعية جديدة ؟

▪ من أهم أهداف ثورة ١٤ تموز كان القضاء على التبعية البريطانية والغربية عمومًا، وتحرير العراق من القيود الاقتصادية والسياسية التي كبل بها النظام الملكي البلاد لعقود. وقد تحقق هذا الهدف سريعا بعد الثورة، عبر الخروج من « المنطقة الإسترلينية » ، مما عزز من قيمة الدينار العراقي الذي بلغ حينها مستوى لم يسبق له مثيل في تاريخ العراق.

كما أن عبد الكريم قاسم قاد بنفسه جولات تفاوضية شاقة مع شركات النفط الأجنبية التي كانت تستنزف ثروات البلاد. وتُوِّج هذا الجهد بإصدار قانون رقم ٨٠ الجبار ، الذي مثل ضربة موجعة لتلك

الشركات، وقُطع به أكثر من ٩٩.٥% من الأراضي العراقية غير المستثمرة من الشركات الأجنبية.

كان هذا القانون أشبه بالسيف القاطع على رقاب لصوص البترول ، لكن الغرب لم يلتزم الصمت. فبدأت المحاولات لخلق بؤر اضطراب داخلية لإرباك الحكومة ومنعها من فرض إرادتها السيادية.

وأنا أرى « من خلال تتبع الأحداث » أن التمرد الكردي في شمال العراق لم يكن سوى أداة ضغط لتعطيل المفاوضات مع شركات النفط الأجنبية . وكان للبرزاني دور محوري في هذا السياق، بتحريك الأحداث في وقت حساس للغاية .

ولو تمعنا أكثر في خريطة الأزمات التي واجهت الجمهورية العراقية الأولى، سنجد خيوطا تمتد نحو واشنطن ولندن، وأخرى نحو أنظمة عربية كانت تنادي بالوحدة، بينما تدبر الانقلابات « وعلى رأسها عبد الناصر »، زعيم العرب ، الذي لم يُخفِ عداءه لقاسم ، حتى سقوطه .

ورغم كل ذلك، نجحت الثورة في فكّ قيود التبعية السياسية والاقتصادية، وانتهجت حكومة قاسم سياسة الحياد الإيجابي، رافضة الانحياز للمعسكرين المتصارعين، وسعت لأن تقف على خط الاستقلال الوطني الحقيقي.

* * *

❖ **هل كانت الثورة وفية لأهدافها الاجتماعية والاقتصادية، أم انحرفت بسبب الصراعات الداخلية والتجاذبات الإيديولوجية ، وهل انحرف قاسم عن مبادئ ثورة ١٤ تموز ؟**

- بكل تأكيد، إن ثورة ١٤ تموز قد أوفت بكامل وعودها الاجتماعية والاقتصادية. وعدت الفقراء بإزالة الصرائف، وأنشأت لهم أحياء سكنية حضارية لا تزال قائمة حتى يومنا هذا مثل مدينة الصدر، الشعلة، الشاكرية، وغيرها، بل وامتدت النهضة إلى المنصور، اليرموك، حي الضباط، الرشاد... القائمة تطول.

كان عبد الكريم قاسم يرفع شعار القضاء على الصرائف في كل خطاب، ولم يكن شعارا أجوف،إنما تحول إلى تنفيذ . كما كان قانون الإصلاح الزراعي أحد أبرز إنجازات الثورة ، إذ سلب الإقطاعيين

سلطتهم وهيمنتهم، وحرر الفلاحين، ووزع الأراضي عليهم بطريقة قانونية وشرعية.

الإقطاعي الذي كان يصول ويجول في مؤسسات الدولة أيام الملكية، أصبح بعد ١٤ تموز مكسور الجناح، وبعضهم انتهى به المطاف في السجن، فيما فر وهرب آخرون إلى إيران ودول الجوار، خوفاً من انتقام الشعب.

أما عن اتهام البعض لقاسم بالانحراف عن مبادئ الثورة، فهو قلب للحقائق. قاسم لم ينحرف، بقدر ما حافظ على خط الثورة المستقل. من اتهموه بالانحراف كانوا يطالبونه بالانضمام الفوري إلى الجمهورية العربية

المتحدة، متناسين أن الضباط الأحرار لم يتفقوا على ذلك إلا في حال تعرّض العراق لعدوان خارجي، وهو ما لم يحدث.

بل إن قاسم، بوصفه قائد الثورة، كان أدرى بتنوع العراق الطائفي والإثني، فلم يشأ أن يزج البلاد في وحدة فوقية قد تثير الانقسامات، وخاصة مع اعتراضات الأكراد وفئات أخرى. لكنه ظل عروبياً، وطنياً، يناصر القضايا العربية، ويدعم حركات التحرر. يكفي أنه خصص مليوني دينار لدعم الثورة الجزائرية، وهو مبلغ ضخم آنذاك. والمفارقة أن الجزائر نفسها، بعد انتصارها، باركت انقلاب ٨ شباط على من دعمها !

إن من ساهموا في إسقاط قاسم لأنه لم ينضم إلى الوحدة مع عبد الناصر، هم أنفسهم لم يحققوا الوحدة بعدها! فتناحروا على المناصب، واغتالتهم الكراسي. فأين الوحدة التي كانوا يتغنون بها؟ بل أين عبد السلام عارف نفسه من هذا المشروع؟ لا شيء سوى الشعارات العاطفية التي خدع بها الجمهور.

الحقيقة أن نظام قاسم كان أكثر عروبة من جميع من جاء بعده. كان واقعيا، لا يطلق تصريحات لا يؤمن بها. بينما عبد الناصر، زعيم القومية ، تحالف مع القوى الاستعمارية لإسقاط قاسم، فقط لأنه لم يخضع له. والفرق واضح: قاسم، رغم خصامه مع بعض الدول العربية، لم يشمت بها ولم يتآمر على شعوبها. أما عبد الناصر، فتحالف مع الغرب

لإطفاء شعلة وطنية في العراق [٨] .

ومن الغريب أن يُتهم قاسم بالفردية لأنه أبعد عبد السلام عارف، بينما لا يُتّهم عبد الناصر بالدكتاتورية حين أبعد محمد نجيب! أين الإنصاف؟ لقد كان قاسم أكثر التزامًا بالوطن، وأكثر وفاءً للثورة، وأكثر وضوحًا في الموقف.

سقط قاسم لأن الإعلام كان ضده، ولأن الواقعية الوطنية خسرت أمام العاطفة الإيديولوجية.

❖ هل كانت ثورة ١٤ تموز ضرورة تاريخية لإنهاء العهد الملكي، أم أنها قفزة غير محسوبة أدخلت العراق في دوامة الانقلابات ؟

▪ **أنا أرى** « وبكل تأكيد » أن النظام الملكي فقد شرعيته منذ سنواته الأولى، بل يمكن القول إنه ولد منقوص الشرعية، والدليل على ذلك أن الشيخ محمد مهدي الخالصي « أحد أبرز الزعامات الدينية في العراق آنذاك » نقض البيعة للملك فيصل الأول بعد مدة قصيرة من تنصيبه، وهو ما يعكس رفضا شعبيا عميقا لمبدأ « الملك المستورد » .

النظام كان يتظاهر بالاستقرار، لكنه كان هشا في جوهره. لم تكمل أي وزارة ملكية مدتها الدستورية البالغة أربع سنوات، بل كانت أقصى مدة لوزارة لا تتجاوز السنتين. والفساد السياسي والإداري كان ظاهراً

ومزمناً، وقد اعتاد نوري باشا السعيد — رجل بريطانيا في العراق — على تزوير الانتخابات مرارا، فكان يحلّ البرلمان متى أراد تمرير مشروع استعماري، ثم يقصي الوطنيين ويأتي بموالين، لتمضي مشاريعه دون معارضة.

والأدهى أن النظام نفسه هو من أدخل العسكر إلى الحياة السياسية، وليس ثوار ١٤ تموز كما يشاع. فحتى الملك غازي، الذي يوصف عادة بأنه قومي مستقل، اعتمد في حكمه على كبار الضباط، الذين كانوا أنفسهم بقايا « الرعيل الأول » من الجيش. ففي وزارته الأولى، كانت تشكيلة الوزارة الكيلانية الثانية تضم ضابطين: نوري السعيد وزيراً للخارجية، وياسين الهاشمي وزيراً للمالية! فكيف يُلام الضباط الأحرار

لاحقًا على التدخل في السياسة، والنظام نفسه هو من فتح لهم الباب؟

أما الفوضى التي حدثت بعد الثورة، فهي ليست من جوهر الثورة نفسها، بل من آثار التحرر السياسي المفاجئ. فالأحزاب السياسية، التي كانت مضطهدة لأكثر من ٣٠ سنة، خرجت إلى النور دفعة واحدة، وبدأ كل حزب يسعى للسيطرة، وطمع في أن ينصب عبد الكريم قاسم خادمًا لمشروعه الإيديولوجي، رغم أن الرجل كان يكرر دومًا بأنه « فوق الميول والاتجاهات » .

ما حدث بعد الثورة كان صراعا بين الأحزاب، لا بين الثورة ومبادئها. أما الثورة نفسها، فهي « برأيي » ضرورة تاريخية لإنهاء حكم استبدادي فاسد، لم يُنتج إلا طبقة سياسية منفصلة عن الشعب، مرتبطة بالخارج،

ومعادية لأي تغيير حقيقي.

* * *

❖ **هل غيرت ثورة ١٤ تموز الهوية الثقافية والاجتماعية للعراق؟ أم أنها اكتفت بإسقاط السلطة دون أن تحدث تحولا حقيقيا في وعي المجتمع؟**

▪ نعم ، أثرت ثورة ١٤ تموز بشكل عميق في الثقافة العامة للفرد العراقي، خصوصا من خلال نشر التعليم، وبناء المدارس، وإنشاء المكتبات العامة، ومدارس محو الأمية . ففي العهد الملكي، كان أكثر من ٧٠ % من الشعب العراقي أمياً، تعمّد النظام إهمالهم وإقصاءهم من أي دور فعال، ليبقى الجهل وسيلة للسيطرة.

لكن بعد قيام الجمهورية، وضعت خطة طموحة لبناء منظومة تعليمية جديدة. انتشرت مدارس محو الأمية، وافتتحت مئات المدارس والثانويات، وتم التوسع في التعليم الجامعي بشكل ملحوظ. أصبحت

الدولة تعتبر التعليم من أدوات السيادة والتحرر .

ولعل أخطر ما كسرته الثورة هو حاجز الصمت الشعبي. فقد عاد للفرد العراقي وعيه السياسي بعد عقود من التهميش. فأصبح قوة ضغط محسوسة. تغيرت العلاقة بين الشعب والحاكم؛ فلم يعد الحاكم بعيدا ومقدسا، بل صار واحدًا منهم، يحمل آمالهم وآلامهم.

تجسد هذا التغير بوضوح في شخصية عبد الكريم قاسم، الذي كان قائدًا شعبيا بكل معنى الكلمة. أحبه الناس لأنه لم يضع بينهم وبينه حواجز. كانوا يرونه في الشارع، في المستشفيات، في المدارس، يسمع لهم، يحدثهم بلغتهم، ويعيش كما يعيشون.

ويكفي أن ندرك عمق العلاقة بين الشعب وقائده حين نعلم أنه الرئيس الوحيد في تاريخ العراق الحديث الذي طالبه الشعب بالسلاح للدفاع عنه. لم يهتفوا ضده، بل حاولوا حمايته. وهذه شهادة لا يمنحها الشعب بسهولة في هذا البلد الذي عانى طويلا من الحكام.

خلاصة تحليلية

إن القراءة المتأنية لأوضاع العراق قبيل ١٤ تموز ١٩٥٨ ، تكشف ان الثورة جاءت كنتيجة حتمية لتراكم طويل من الأزمات البنيوية التي ضربت المجتمع والدولة معا. فالنظام الملكي لم يفشل فقط في تحقيق العدالة الاجتماعية، بل بدا أيضا عاجزا عن تمثيل إرادة الشعب، وظهر في نظر غالبية العراقيين كسلطة وكيلة لمصالح خارجية، مرتبطة بالمشروع الغربي على حساب الاستقلال الوطني.

وقد لعبت التفاوتات الطبقية، واستحواذ الإقطاعيين على الثروة والقرار، وسياسات التهميش الطائفي، والخيبة من تخاذل النظام في دعم القضايا العربية — وعلى رأسها فلسطين — دورًا مباشرًا في شحن مشاعر الغضب

والاستياء الشعبي، لا سيما في أوساط الجيش والطبقات الكادحة.

وهكذا، فقد ولدت الثورة من رحم أزمة عميقة، وكان اندلاعها استجابة لتطلعات شعب حرم طويلا من الكرامة والعدالة والسيادة.

آراء في رجل الثورة عبدالكريم قاسم

❖ **بعد نجاح ثورة ١٤ تموز وتسلم عبد الكريم قاسم زمام الحكم، هل تصرف كرجل مرحلة انتقالية يسعى لبناء مؤسسات دولة ديمقراطية، أم كزعيم فرد أراد تثبيت سلطته ولو على حساب التعددية السياسية؟ ولماذا؟**

▪ بعد ثورة ١٤ تموز، حرص الزعيم عبد الكريم قاسم على تشكيل حكومة تمثّل مختلف مكونات المجتمع العراقي من طوائف وأديان ومذاهب. فجاء مجلس السيادة انعكاسا لهذا التنوع، إذ ضم محمد نجيب الربيعي ممثلا عن السنة، ومحمد مهدي كبة ممثلا عن الشيعة، وخالد النقشبندي ممثلا عن الأكراد. ولم يكن العراق قد شهد مثل هذا التمثيل المتوازن من قبل، لا في العهد الملكي ولا فيما سبقه.

لكن هنا يبرز تساؤل جوهري: لماذا لم يشكل عبد الكريم قاسم مجلسا لقيادة الثورة على غرار ما فعلت الأنظمة التي تلته؟

يرى البعض أن امتناعه عن تأسيس هذا المجلس كان دليلا على رغبته في الانفراد بالحكم، غير أنني أرى أن الجواب الحقيقي يكمن في طبيعة تنظيم الضباط الأحرار نفسه.

فقد كانت اللجنة العليا تعاني منذ بداياتها من تناقضات وتنافسات داخلية حادة، إذ رأى كل ضابط في نفسه الأحق باتخاذ القرار، وكانت تلك الخلافات تطفو إلى السطح كلما طرحت فكرة القيادة الجماعية. ومما يثير الانتباه أن عبد السلام عارف نفسه « الذي

طالب مرارا بإنشاء مجلس لقيادة الثورة » كان أول من رفضه حين طرح جديا.

ورغم أن قاسم أقصى عارف لاحقا، إلا أنه لم يقدم على تأسيس المجلس، ربما لأنه أدرك مبكرا أن قيادة جماعية مكونة من ضباط متنافسين لن تكون إلا وصفة جاهزة للفوضى والانقسامات داخل الجيش والدولة. وتجربة مجالس القيادة التي جاءت بعده، كالمجلس البعثي، تؤكّد هذه المخاوف، إذ تحولت تلك المجالس إلى أدوات بطش وديكتاتورية وألغت صوت الشعب.

لذلك، أرى أن امتناع قاسم عن تأسيس مجلس لقيادة الثورة لم

يكن ناتجًا عن ضعف في الرؤية أو رغبة في الاستبداد، بل عن وعي حاد بخطورة تحويل السلطة إلى نخبة عسكرية متصارعة.

أما في ما يخص الحياة النيابية، فقد وعد الزعيم عبد الكريم قاسم العراقيين بإجراء انتخابات برلمانية حرة خلال عام ١٩٦٣ ، وكان يسعى جديا لإعادة إحياء النظام الدستوري من خلال إصدار القانون الأساسي، إلا أن الأقدار لم تمهله لتحقيق ذلك.

ومن المؤسف أن العديد من الضباط الأحرار أنفسهم انحرفوا عن مسار الثورة في عامها الأول، كالمرحوم ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري، الذين تمردوا وطالبوا بالوحدة الفورية، غير مبالين

بحساسية المرحلة وتعقيداتها. وعلى الرغم من خطورة هذا التمرد، فإن الزعيم لم يلجأ إلى الإعدام الفوري أو الانتقام، بل أصر على محاكمات علنية نزيهة، سمح لهم فيها بالدفاع عن أنفسهم بكل حرية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين عرض العفو مقابل اعترافهم بالدور المصري في الانقلاب [٩] ، وهو ما رفضوه، رغم أن معظم المصادر التاريخية تؤكّد تورّط الرئيس جمال عبد الناصر بدعمه.

❖ هل أعتمد عبدالكريم قاسم على الجيش في إدارة الجمهورية العراقية الأولى ؟

▪ تعود ظاهرة تسييس العسكر الى النظام الملكي العراقي . اذ تجلى ذلك في العقد الثالث من القرن الماضي ، حيث رأى المدنيون ان استخدام العشائر للوصول الى السلطة لم يعد يعمل بطريقة فعالة (وكان من خلال دفع العشائر للخروج بمظاهرات ضد النظام) فألتجئ هؤلاء المدنيون الى العسكر .

فبدأت بوادر التعاون بين جماعة الأهالي و رئيس الوزراء السابق حكمت سليمان وبين نائب رئيس الاركان الفرق بكر صدقي والفريق عبد اللطيف نوري و محمد علي جواد وغيرهم ، وكان هدف التعاون

ذلك هو اسقاط وزارة الوزارة الهاشمية التي طغت وتمادت حتى على الملك غازي .

وتقول المصادر ان الملك غازي كان متواطئ من الانقلابيين وعلى علم بتلك التحركات . فتم بذلك التعاون اسقاط الوزارة الهاشمية بما يعرف بأنقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ واصبح الآمر الناهي هو العسكر حتى بوجود وزارة وملك ، ناهيك عن الاحكام العرفية التي اعلنت في النظام الملكي تقريبا ١٦ مرة .

انتهى النظام الملكي في ١٤ تموز بعد ان قام الجيش بالزحف الى بغداد ونجح في بث البيان نخرج العراقيون من مساكنهم وهم يهتفون بحياة

الثورة ويندون بسقوط النظام الملكي .

فتشكلت الوزارة الأولى ويفوق عدد المدنيون على العسكر في الوزارة وبقت وزارات الجمهورية القاسمية على هذا النمط حتى السقوط في ٨ شباط .

❖ **ما الدوافع التي جعلت عبد الكريم قاسم يرفض الدخول في الاتحاد العربي مع الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) عام ١٩٥٨ ، رغم الضغوط الداخلية والخارجية؟ ل**

▪ قد تأثر الزعيم عبد الكريم قاسم منذ بدايات وعيه السياسي بأفكار جماعة الأهالي، وهي نخبة فكرية عراقية كانت تعرف بميلها إلى الاعتدال السياسي، والابتعاد عن التطرف القومي أو الأممي، واهتمامها ببناء الدولة الوطنية العراقية على أسس واقعية لا شعاراتية. كما تأثر قاسم أيضاً بالفكر الوطني للفريق بكر صدقي، الذي كان أول من قاد انقلابا عسكريا في العراق سنة ١٩٣٦ ، وكان يحمل رؤية عراقية خالصة تضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار. هذا التأثير الفكري المزدوج جعل عبد الكريم قاسم، وهو على رأس السلطة بعد ثورة 14 تموز 1958، لا

يتعجل في الانخراط في مشاريع الوحدة العربية التي كانت تروج حينها بشعارات عاطفية لا تقوم على أسس اقتصادية أو إدارية أو سياسية واضحة.

في تلك المرحلة، كان العالم العربي يشهد موجة عارمة من الحماس الوحدوي، وقد تُرجمت هذه الموجة بإعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ تحت اسم « الجمهورية العربية المتحدة » ، بقيادة الرئيس المصري جمال عبد الناصر. ورغم أن هذه الوحدة أثارت إعجاب قطاع واسع من الجماهير العربية، إلا أن عبد الكريم قاسم لم يندفع معها، بل بقي حذرا ومتريثا، مدركا أن ظروف العراق تختلف كثيرا عن بقية

الأقطار، وأن الدولة العراقية بحاجة إلى إصلاح داخلي شامل قبل التفكير في أي مشروع وحدوي خارجي.

لقد كان قاسم يرى بوضوح أن العراق، الخارج لتوه من نظام ملكي طويل، والذي عاش اضطرابات سياسية واقتصادية وأمنية، بحاجة إلى إعادة بناء مؤسساته، وترسيخ الاستقرار، وتوزيع الثروة بشكل عادل، خاصة بعد اكتشافات النفط وتوسع الإنتاج.

كما أن المجتمع العراقي حينها كان متعدد القوميات والطوائف، ويحتاج إلى مقاربة حساسة تضمن الانسجام الداخلي، لا إلى مغامرات خارجية قد تُفاقم التوترات أو تضعف الدولة.

أما الاتحاد بين مصر وسوريا، ورغم ضجيجه الإعلامي، فقد أثبت فشله خلال ثلاث سنوات فقط، إذ أعلن في عام ١٩٥٨ وانهار عام ١٩٦١ بعد انقلاب في دمشق، كشف مدى هشاشة الاتحاد، وتباين المصالح، وانفراد عبد الناصر بالقرار، دون مشاركة حقيقية من السوريين.

فإذا كانت تلك التجربة قد فشلت بين دولتين جارتين تتقاسمان اللغة والثقافة، فكيف كان سيكتب لها النجاح مع العراق الذي يملك خصوصياته وتناقضاته ومشاكله الداخلية؟

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بقوة: لو أن عبد الكريم قاسم استجاب للضغوط وانضم إلى ذلك الاتحاد، فماذا كان سيكون مصير العراق؟ هل

كان سيحتفظ باستقلال قراره؟ هل كان سيسمح له بإعادة إعمار الوطن وإرساء العدالة الاجتماعية كما كان يطمح؟ أم أن العراق كان سيتحول إلى تابع للقرار الناصري الذي لا يقبل التعددية ولا المشاركة الفعلية؟

إن القراءة المتأنية لتلك المرحلة تظهر أن موقف قاسم كان عقلانياً. لقد كان حريصا على استقلال العراق، ورفضه للوحدة لم يكن رفضا لفكرة العروبة، إنما رفضا لصيغة الوحدة المفروضة من الأعلى، التي تقصي الشركاء وتغيب الهوية الوطنية.

لقد وقف قاسم بوجه المد القومي الناصري لأنه رأى فيه محاولة للهيمنة،

وليس مشروعا حقيقيا للوحدة المبنية على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة.

ومن هذا المنطلق، أنا أرى ، إن قرار عبد الكريم قاسم بإبقاء العراق خارج ذلك الاتحاد، كان قرارا صائبا، بل منقذا للعراق من مصير مجهول. لقد اختار أن يبني العراق أولا ، وأن تكون بغداد هي من تعمر لا القاهرة .

❖ **كيف استطاع عبد الكريم قاسم أن يحافظ على سلطته رغم كثرة محاولات الاغتيال والانقلابات ضده خلال فترة حكمه؟ وما العوامل التي ساعدته على البقاء في السلطة حتى عام ١٩٦٣ ؟**

▪ استطاع الزعيم عبد الكريم قاسم أن يبقى في الحكم طيلة أربع سنوات ونصف رغم تعرضه لأكثر من ثلاثين محاولة انقلابية ، وهو رقم غير مسبوق في تاريخ العراق الحديث. والسؤال هنا: كيف نجح في مقاومة كل هذه المحاولات والبقاء في السلطة وسط بحر متلاطم من المؤامرات الداخلية والخارجية؟

في رأيي، يكمن الجواب الأول في شعبيته الجارفة، تلك الشعبية التي لم ينل مثلها أي حاكم عراقي قبله أو بعده. لقد آمن به الفقراء، وآزرته الطبقات المسحوقة، وتعلقت به الآمال الشعبية كونه جاء ليحقق

أحلام البسطاء .

كان عبد الكريم قاسم قريبا من الناس، يلبس كما يلبسون، ويعيش كما يعيشون . وقد رفع شعارات الإصلاح والحرية والعدالة الاجتماعية، ولم تكن شعارات جوفاء كما هو الحال في المسؤولين ، انما رافقتها قرارات ملموسة شملت توزيع الأراضي، إنشاء المساكن الشعبية، دعم التعليم وتحسين معيشة المواطنين.

كما أن قاسم لم يكن منغلقا داخل حدود العراق، بل تبنى خطابا وحدويا مبدئيا ومعتدلا في آن واحد، دافع فيه عن القضايا العربية الجوهرية، مثل القضية الفلسطينية، والجزائر، والاحتلال البريطاني

في الخليج، لكن دون التفريط بالسيادة العراقية أو الارتماء في حضن أي زعامة خارجية. هذا الموقف الوسطي جذب إليه شرائح واسعة من الجماهير العراقية والعربية، التي رأت فيه زعيمًا مستقلًا، وطنيًا، ونزيهًا، يرفض الإملاءات الخارجية وينتمي حقًا إلى الشعب.

لقد كانت جماهير العراق تحبه بإخلاص، وهذا ما بدا واضحا يوم٨ شباط ١٩٦٣ ، حين خرج الآلاف إلى شوارع بغداد يطالبون بالسلاح للدفاع عن الزعيم والنظام، وكان بامكانه فعلا ، لو انتقل إلى معسكر الرشيد بدل التمركز في وزارة الدفاع، أن يقلب المعادلة رأسا على عقب، وأن يسحق الانقلابيين كما فعل في مرات سابقة.

من جهة أخرى، فإن علاقات عبد الكريم قاسم بالكتلة الشرقية، وخصوصا الاتحاد السوفيتي، منحته بعدا دوليا مهما، ومكنته من كسب الدعم السياسي والتقني والاقتصادي، وهو ما ساعد العراق في بداية نهضته الصناعية والزراعية.

كذلك حظي نظامه بتأييد واسع من الحزب الشيوعي العراقي، الذي شكّل قوة جماهيرية منظمة. وحتى بعد توتر العلاقة بين الطرفين بسبب بعض التباينات، لم يتخل الحزب الشيوعي عن الزعيم، بل خرجت كوادره وأنصاره يوم ٨ شباط دفاعا عن الجمهورية، رغم معرفتهم بكلفة المواجهة.

وفي الختام

تمثل تجربة ثورة ١٤ تموز وما أعقبها من تحولات في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم مرحلة بالغة الحساسية في التاريخ السياسي العراقي الحديث، تداخلت فيها الطموحات الوطنية مع التحديات الداخلية والخارجية. وقد سعى هذا الكتاب إلى تقديم مقاربة تحليلية تسلط الضوء على تعقيدات تلك الحقبة، بعيدا عن الأحكام المسبقة أو الآراء الإيديولوجية.

إن فهم تلك المرحلة لا يزال ضرورة لفهم المسار العام للدولة العراقية، كما أن إعادة قراءة سلوكيات السلطة ومواقف الجماهير في ذلك الزمن المضطرب يتيح مساحة للتفكير النقدي في آليات التغيير السياسي وطبيعة القيادة الوطنية.

الهوامش

(١) جعفر الحسيني ، ثورة في العراق (١٩٥٨ - ١٩٦٣) ، ط٢ ، ٢٠١٨ ، ص ٥٩ .

(٢) راجع المنشور الثاني لجماعة العلماء ، حيث يصف الملك فيصل الثاني بـ « سلطان جائر » ويصف « الزعيم بالقائد الفذ » . انظر احمد عبد الله ، محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق ، ج١ ، مؤسسة العارف للمطبوعات ، المنشور الثاني .

(٣) أول من اطلق هذا الشعار هو العقيد الركن وصديق الزعيم - المتآمر لاحقاً - عبد السلام عارف وتحديداً في ٣ تموز عام ١٩٥٨ . أنظر: شامل عبد القادر ، الاغتيال بالدبابة اسرار انقلاب انقلاب ٨ شباط في العراق ، ص ٢٤ .

(٤) د. عقيل الناصري ، قراءة أولية في سيرة عبد الكريم قاسم ، ص ١٨٥ .

(٥) يتوصل عبد الفتاح إبراهيم عندما اعتبر ثورة ١٤ تموز ثورة وطنية تحررية ضد الاستعمار، وأنها ثورة تقدمية ضد الإقطاع والرجعية، وثورة شعبية تعتمد الديمقراطية والقومية المتحررة. وهذه المبادئ تنطوي إجمالاً على المخطط العام لنظرية الثورة وخطتها .. وديمقراطيتها مستقاة من منحاها نحو المساواة النسبية بين عناصر الطيف العراقي في المدينة والريف . أنظر: نوري صبيح ، استعادة الزعيم : حوارات وآراء عراقية عن الزعيم عبد الكريم قاسم وثورة ١٤ تموز مع الباحث عقيل الناصري ، ص ٤٧ .

(٦) علي جاسم السواد ، القائد المجهول لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، مكتبة النهضة العربية ، ص ١٠٧ .

(٧) صباح علال زاير ، آمر حماية الزعيم وآخر الصامدين : مذكرات اللواء شاكر محمود العزاوي ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٨) جاء في مجلة اوراق من ذاكرة العراق العدد « ٢٢ » الصادرة في ١٥ شباط ٢٠١٤ : « كان الزعيم منغمسا في تطوير الاقتصاد العراقي ورفع مستوى الحياة المعيشية والاقتصادية وبناء المعامل بينما كان عبد الناصر يتحين الفرص كالضبع لتصفيتة جسديا ! »

(٩) د. عقيل الناصري ، المصدر السابق الذكر ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .